الجمال الطبيعى والفنى

للاديب الانجليزى كلاتون بروك

(A. Clutton - Brock)

عن كتابه (مقالات فى الفن Essays On Art)

للطبيعة جمالها وللفن جماله ، وقد بذلت مساع كثيرة لايضاح الفرق بين الجمال الفنى والجمال الطبيعى ؛ لكن نظرية « سينجر جروس Signor Groce » كثيرة الأنصار اليوم ، وهى تقول : « إن الطبيعة تمد الفنان بالمواد الأولية فقط ، وإن الشعور بجمال الطبيعة هو مبدأ التدرج الفنى ، وان عقل الفنان موجد الترتيب والتناسب فى الطبيعة المهوشة ، وان الناس جميعهم قادرون على إيجاد هذا الترتيب ولكن بدرجة محدودة . أما الفنان فيظهر هما أكثر جمالا وكمالا ؛ الفنان قوى الاحساس يستطيع أن يصنع (Make) الجمال الذى يحسه ، الاحساس جزء من الصنعة .

ويقول جروس : « اذا كان الفنان يصنع جمال الطبيعة بشعوره به ، واذا كان من الممكن أن يتولد هذا الجمال بعمل عقله ، يكون جمال الطبيعة حينئذ من نفس الجمال الذى يظهر فى فنه ، ثم اذا ظهر لنا أن فن الفنان يختلف عن جمال الطبيعة فما ذلك إلا لاننا أنفسنا لم ننظر جمال الطبيعة كما نظره الفنان . ولاننا لم نحول كل التمويش الى ترتيب . واعلم أن هذا الاختلاف بين عمل الفن وعمل الطبيعة ليس اختلاف نوع بل اختلاف قدر ، وأنه لا اختلاف فى الحقيقة بين جمال الطبيعة وجمال الفن لا فى النوع ولا فى القدر . ان ما يصنعه الفنان يراه ، وما يراه يصنعه ، كل الجمال فنى ، وان حديثك عن جمال طبيعى حديث خرافة » .

رغماً عن « جروس » وكل حذقه وما فى نظريته المنطقة حق لا يمكن أن نعتقد أننا نصنع الجمال حينما نراه ، وأن الفنان يصنعه حينما يحسه ، ولن نعتقد أن الجمال الذى يصنعه هو من نفس طبيعة الجمال الذى شعر به ، ولا هو — مثلنا — يقدر الجمال الذى يحسه حق قدره لانه يعلم أن لا بد له من صنعه ، وأنه شىء مستقل عن نفسه . الفن ليس أكثر من تأثر عقل الفنان بجمال الطبيعة ، وعلى قدر ما فى العمل الفنى من عاطفة وإحساس يكون ما فيه من جمال .

اذا عرف الفنان أن الجمال الذى يحسه هو نتاج عقله ، لا يستطيع بعدها أن يقدره حق قدره ، وانه اذا تمسك بنظرية « جروس » خرج عن كونه فناناً وأصبح ذا صفة أخرى ؛ لاشىء يقتل الفن مثل الجرى وراء ايجاد جمال من نفس طبيعة الجمال الذى نراه فى الطبيعة .

نشاهد فى جمال الطبيعة صنعة Work Manships غاية فى الاتقان ، وانها كذلك غاية فى الاتقان ؛ لانه لا يوجد فى الحقيقة ثمة صنعة ، الاشياء الطبيعية لم تصنع وانما ولدت ، أعمال الفن التى صنعت ، توجد فروق جوهرية بين الاشياء التى صنعت والاشياء التى ولدت ، ثم بين جمال هذه وجمال تلك .

لابد وأن يظهر فى كل من الاعمال الفنية جهد الصنعة ونقصها وخشونتها ، وان هذا الجهد والنقص والخشونة انما هو فى الحقيقة روح جمال الاعمال الفنية وانه هو الذى يميزها من جمال الطبيعة ، وحالما يمتنع الناس عن فهم ذلك وينتخفون بهذا الجهد والنقص والخشونة ، تراهم على الغالب لا يظفرون حين يطلبون من الفن الجمال الطبيعى بغير جمال ميت .

يمكننا أن نفهم أحسن فهم الفرق بين نوعى الجمال اذا نحن تدبرنا كيف ينسل الجمال فى اللغة ، هذا الفن الذى نمارسه جميعنا قليلا أو كثيراً ، والذى يصعب فيه ان لم يكن مستحيلا تقليد غاية الجمال الطبيعى ؛ لا يوجد جمال فى مثل جملة : « سينال المعتدون جزاءهم » ، لانها تؤدى المعنى المراد تماما بلا زيادة ولا نقصان ، ويوجد جمال فى مثل جملة « ليال سرقناها من الدهر . . . » لان فيها ، وان كانت تظهر أيضا غاية فى البساطة ، يحاول الشاعر أن يقول أكثر بألف مرة مما يستطيع أن يقوله ؛ ان السعى فى عمل ما هو خارج عن طاقة الكلمات هو الذى يحمل الجمال الى الكلمات ؛ تلك هى طبيعة الجمال الفنى التى بها يتميز من الجمال الطبيعى ، الاعمال الفنية هى دائما وليدة السعى لاتمام المستحيل ، لاتمام ما يعرفه الفنان أنه مستحيل ، وانه حينما لا يوجد هذا السعى ، حينما يكلف الفنان نفسه عملا فى وسعه اتمامه ، عملا لا يدل على غير المهارة ، حينئذ يخرج عن كونه فنانا . يقول (جروس) إن شعورنا بالجمال يرتفع على قوة احساسنا بعظمة الاشياء ، هذا صحيح ؛ غير أن قوة احساسنا هذه تبقى قوة احساس غير قادرة على صنع ما تحسه ! ان الفن ليس مجرد اتساع طريق الشعور كما يزعم (جروس) ، وانما هو تجربة عملية لاظهار مقدار شعور رجل الفن ، فن الفنان جواب لجمال الطبيعة وعناده له .

الفن ايضاح حالات خاصة ، حالات انجذاب وتقدير ، هو التسليم ببعض اشياء أعظم من الانسان وحيث لا يوجد هذا التسليم يموت الفن .

ان هذا الفرق بين جمال الطبيعة وجمال الفن لا يرى فى الجمعية التى تعتقد أنها تستطيع أن ترفع سماء بمهارتها وعلمها وحكمتها ، أن الفن فى مثل هذه الجمعية يفقد كل خواص جماله .

أن الرجل الذى يتطلع الى الكمال فى الفن انما يخدع نفسه إذ الكمال لله وحده ، ولا ريب أن من عرف الله حق معرفته أصبح شبيها به وأمكنه أن يكون الجمال مثله ، ولكن ان للانسان ذلك ، بل أن العجز ليجعله غير قادر على اتمام موضوعاته التى توحى اليه بها معرفته الله ، وهما بسمو لا يد له فيه ؛ وهكذا نرى النقص باديا فى كل جمال فنى ليس فى الفكر فحسب ، بل فى العمل أيضا ، وانه لنقص يحسبه خيبة وشناعة اولئك الذين يتطلعون الى مسمى الجمال الطبيعى فى الفن والى توقع رؤيته نظريا لا صنعياً ، مثل هؤلاء يفشلون أبداً فى الاعمال الفنية العظيمة لما يعروهم من قنوط وكد وجهد ؛ انهم موازين قدرة الانسان واعترافه بالعجز فى آن واحد ؛ بيد ان هذا الاعتراف القائم على الصدق والاخلاص ان هو إلا الجمال بعينه ، وأن الصفاء ليبدو فى جمال الفن ابداً ولكنه صفاء الاذعان لاصفاء الرضى ، صفاء القداسة ، وليس لاصفاء التجمل ، ان العظمة غير المحدودة فى كل ما يأتى به الفن ليست سوى اثر مهارة يلدها سعى الفنان الدائم ليعمل أكثر مما يستطيع . ليس للفنان ان ينشد مجرد الثناء وتصفيق الاستحسان بل يجب أن يعبد أيضا وان يبدع ما يقدمه بين يدى عبادته ، ذلك خير وابقى ، ليس الرعاة وحدهم الذين تقدموا الى قبر السيد المسيح ، بل الحكماء أيضا جاءوا يحملون اليه كنوزهم ، وفن الانسانية انما يكون بآثار حكمائها ، بل هو عبادة المجوس أكثر الناس بساطة فى عبادتهم .

(أيها الحكماء لقد قطعتم كل طرق المعرفة وانتهى بكم المطاف الى حيرة الراعى ؛ ولكنها الحيرة التى لا تذهب بالحكمة)

التى عندما تقف حائرة وتتوجه معرفة الانسان ومهارته وكامل شعوره الى الاقرار لما هو أعظم من الحكماء أنفسهم يكون ذلك الاقرار هو الفن ، ويكون له من الجمال ما يفوق جمال الطبيعة القدسى .

شرق الأردن

بشير الشريق

المحامى

الحقيقة . . . والخبز !

للاستاذ على الطنطاوى

كانت ليلة باردة . تزأر فيها الرياح زئيراً مرعباً ـ ويهبط فيها البرد مجنوناً ، فيصطدم بالنوافذ والجدران . ويكون لوقعه على نافذة النادى الوطنى فى تورينو (فى بيه مونت) صوت كصوت الطبل. وكان النادى خالياً تلك الليلة الا من نفر جاءوه على رغم هذا البرد .. وتجمعوا حول الموقد يحتسون الخمر ، حتى اذا اكثروا من الشراب ، واثقل رءوسهم جو النادى الثقيل ، الملىء بالدخان ، استرخت اعضاؤهم ، وتمددوا فى كراسيهم ، يتجاذبون اطراف الاحاديث فى فوضى واضطراب . ولم يكن فيهم مصغ ، بل كانوا جميعا متحدثين صاخبين ..

ورأى خادم النادى تثاقلهم عن الذهاب ، فعلم انهم لا ينوون براحاً قبل الصباح . فمشى الى الباب على حذر ، ثم أغلقه دونهم وخرج وهو يذهب عقله فى كتفيه ، وينفس الصعداء . وهرول يريد بيته وعياله

ولبث القوم على صخبهم حتى صاح منهم «دانى» :

ـ هو . . . ألا ترون هذه الفوضى مضجرة ؟

وكأنما نبههم بصياحه فأنصتوا . وقال صولين

ـ وماذا تريد ؟

ـ أريد أن نشرب قدحاً آخر على روح الدكتور !

فتبسم صولين ضاحكا من قوله ، وانبرى له بيير بحدة كالذى لدغته عقرب فقال :

ـ أتعود الى ذكره ؟ لقد ذهب الى الشيطان!

ـ ولكنه كان مخلصاً

ـ نعم ، كان مخلصاً للنمسا (عدوة الوطن) للنمسا التى عاش بعة أعوام يتلقى العلم فى جامعاتها ، ويتلقى معه بنور الخيانة للبلد الذى أنشأه ، حتى اذا عاد أنكر هذا البلد الذى غادره ، طيعاً هادئا : يؤثر السلم والطمأنينة ، ولو فى ظل الأجنبى الغاصب ، على الجهاد فى سبيل الحرية ، فوجده حين عاد متيقظاً قد غمرته الروح المقدسة ، روح الجهاد من أجل الوحدة الايطالية ، وانتشرت فيه كالسيل